تراث الإنسانية

سيرة الأميرة ذات الهمة

د. نبيلة إبراهيم



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

سيرة الأميرة ذات الهمة

د. نبيلة إبراهيم



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

سيرة الأميرة ذات الهمة

د . نبيلة إبراهيم

لا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأمم من عصر أطلق عليه الباحثون اسم « العصر البطولى » ٠ ويتسم هذا العصر بخصائص محددة لخصها شادفيك فى كتابه « العصر البطولى » بعد استقصاء ودراسة شاملة للأدب البطولى فى العالم بأسره فيما يلى : أولا : تقع الطائفة نصف المتحضرة من الشعب تحت تأثير الطائفة الأخرى المتحضرة ٠ ثم ما تلبث الطائفة الأولى أن تشعر بكيانها وتطمح فى السيطرة على الطائفة الأخرى ٠

ثانيا : تبدأ الطائفة نصف المتحضرة فى تحقيق كيانها عن طريق الهجرة من موطنها الأصلى الى مكان آخر ٠

ثالثا : تحرص هذه الطائفة من الشعب بعد ذلك على

تخليد ماضيها والفخر بحاضرها عن طريق أدبها البطولى ·

وإذا نحن حاولنا أن نطبق هذه الخصائص على تاريخ الأمة العربية ، فاننا نلاحظ أنها عاشت العصر البطولى فى زمن من الأزمنة التى مرت بها وربما بدا هذا العصر مع العصر العباسى الأول أو قبل ذلك بقليل ·

فى هذا العصر بدأت العناصر الغريبة – الفرس أولا والترك بعد ذلك · تفرض نفسها شيئا فشيئا على العنصر العربى الأصيل · كما كان الحكام العباسيون يساعدونهم بدورهم فى تثبيت أقدامهم فى المجتمع العربى · أما العرب فقد أهمل أمرهم ، وظلوا يقبعون فى ديارهم فى البادية ويعيشون حياة تقترب كثيرا من حياة الجاهلية · على أن العرب لم يكونوا غافلين عن هذا التغيير الجوهرى فى حياة الأمة العربية ومدى خطورته عليها · ولم يكن فى وسعهم سوى أن يؤكدوا وجودهم فى زحمة هذه الحوادث ، وذلك عن طريق مساهمتهم فيها طوعا واختيارا ، كما نزحت بعض القبائل العربية من موطنها فى الصحراء خوفا من انطماس تاريخها ، واستوطنت مناطق أكثر تأثرا بحوادث العصر · وليس فى وسعنا أن نعدد هذه القبائل ، وانما يهمنا أن نشير الى قبيلة بنى كلاب ، لأن السيرة تحكى عن تاريخها وكفاحها · فقد

هاجرت قبيلة بنى كلاب من موطنها فى الصحراء ، ، واستوطنت منطقة من أهم المناطق التى ساهمت فى كفاح الأمة الاسلامية وهى منطقة الثغور الشامية التى كانت تقع بين الدولة العربية والدولة البيزنطية · وقد اختارت القبيلة هذه المنطقة بعينها لأنها كانت منطقة الصراع بين الأمة الاسلامية من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى · وبعبارة أخرى كانت منطقة الصراع بين الدين الاسلامى والدين المسيحى ، وكان لابد لهذا الصراع من أن يحسم الموقف ، فأما النصر للدولة العربية والدين الاسلامى أو للدولة البيزنطية والدين المسيحى · وعلى ذلك فقد خرجت أسرة بنى كلاب من موطنها القديم مدفوعة بدافعين نفسيين : أولا : رغبتها فى تأكيد وجودها فى المجتمع الاسلامى الجديد ، وثانيا : المساهمة فى صنع تاريخ الدولة الاسلامية فى وقت أوشك كيانها فيه على الانهيار · واستقرت أسرة بنى كلاب فى ملطية عاصمة الثغور · وهناك كونت جيشا يعمل مستقلا ومتطوعا فى سبيل نصرة الاسلام · هذا ما يذكره القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » · وربما كانت اشارة صبح الأعشى على ايجازها هى الخيط الأول الذى يرشدنا الى ربط سيرة الأميرة ذات الهمة بالتاريخ · فهو يقول : « ومن بنى عامر بن صعصعة بنو كلاب · وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة

٠٠ وكان لهم فى الاسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حمى ضرية وهو حمى كليب ، وحمى الربذة فى جهات المدينة النبوية ، وفدك ، والعوالى · ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام فكان لهم فى الجزيرة الفراتية صيت وملكوا حلب ونواجعها وكثيرا من مدن الشام · وذكر فى مسالك الأبصار : أنهم ينتسبون الى عبد الوهاب المذكور فى سيرة البطال » ·

ثم يقول بعد ذلك : « ولهم غارات عظيمة على بلاد الروم وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يباعون من سباياهم · » (١) ·

ومعنى هذا أن سيرة « الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب » قد نشأت تخليدا لتاريخ أسرة بنى كلاب · ولعل هذا يحدد لنا زمان نشأة السيرة ومكانها · فزمان نشأتها يتحدد بتاريخ كفاح هذه الأسرة · وتحدده السيرة بعصر عبد الملك بن مروان ، كما يتحدد مكان نشأتها بالمكان الذى استوطنت فيه الأسرة ساعية وراء الكفاح : أى أنها نشأت ببلاد الشام · ويؤكد لنا هذا أن أسلوب السيرة الذى يقرب من الفصحى كثيرا ما يختلط بلهجة الشام

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٠ · (ط وزارة الثقافة والارشاد) ·

وعاميتها ، كما تقابلنا فى السيرة بعض الألفاظ والعبارات اليونانية مثل عبارة « كريا اليسون » وتعنى « اللهم رحمتك » ، ومثل عبارة « لورك لورك » اى الأمان ، الأمان · وقد عرف سكان الثغور هذه العبارات نتيجة اختلاطهم بالروم ·

ويمكننا بعد ذلك ان نقدم موجزاً للسيرة حتى نتمكن من بحث حوادثها فى ضوء التاريخ ، ثم نفرغ من ذلك الى البحث عن هدفها بوصفها عملا ادبيا وعن خصائصها بوصفها عملا شعبيا ·

فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ذاع صيت الحارث الكلابى بوصفه زعيما لأسرة بنى كلاب ، كما ذاع صيت مروان بن الهيثم بوصفه زعيما لأسرة بنى سليم · ولما مات الحارث فرح العرب بموته لانه كثيرا ما كان يزعجها بغاراته · أما زوجته التى كانت على وشك ولادة طفلها ، فقد قررت أن تهرب خوفا من انتقام أعداء زوجها منها أو من طفلها ، فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها « سلام » الذى كانت تثق فى اخلاصه وأمانته ، ولكن ما أن خلا بهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءا · فدافعت المرأة عن نفسها دفاعا أدى بها الى ولادة طفلها والى وفاتها فى الوقت نفسه · ولكنها

قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها ، وأن يعلق على صدره تميمة أعطتها له . ولما رأى الخادم الأم وهى مضرجة فى دمائها ، ترك الطفل بعد أن علق التميمة فى صدره ، وولى هاربا . فى هذا الوقت ، خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يقلقه ، اذ كان له ولد توفى فى ذلك اليوم ، وقاده الطريق الى المرأة المضرجة فى دمائها ، وبجانبها طفلها يصرخ ، فأشفق على الطفل ، وأخذه ليربيه عوضا عن ابنه المتوفى ، كما اطلق عليه اسمه وهو جندبة . ولما شب جندبة عن الطوق ، ظهرت عليه أمارات البطولة التى ورثها عن أبيه . فخشى الأمير دارم منه وقرر أن يطلعه على حقيقة نسبه حتى يفارقه ، وكان دارم قد عرف ذلك من التميمة التى وجدها معلقة بصدر جندبة ، وسعد جندبة لسماع هذا الخبر ، وهب من فوره راحلا الى قومه بنى كلاب ، ليقف بطلا محاربا بين صفوفهم ، وكانت مهمة جندبة تنحصر فى الدفاع عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بنى سليم التى كانت تسعى الى تصدر الزعامة بين القبائل العربية بدلا من قبيلة بنى كلاب ، ولكن الايام لم تمهل جندبة فتوفى تاركا أخاه عطافا ليقوم بدوره فى الزعامة . ولم يمض وقت طويل على وفاة جندبة ، حتى ولدت زوجته ولدا سمى الصحصاح . وفى الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة

سماها ليلى . وتربى الصحصاح وليلى فى بيت واحد . فلما كبرا دب الحب فى قلبيهما وعزم الصحصاح على الزواج من ليلى ، ولكن عطافا الذى كان يكن الكره للصحصاح وضع العقبات فى سبيل اتمام هذا الزواج ، فقد تحتم على الصحصاح أن يقدم مهرا بالغا لم يكن يملك منه شيئا ، ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح الذى قرر أن يقوم بمغامرات بطولية حتى يحصل على المهر المطلوب . وفى أثناء مغامراته ، بلغه أن مروة بنت الخليفة تتعرض لخطر بالغ من جراء هجوم بعض الأعراب عليها ، فهم الصحصاح بانقاذها واصطحبها الى بيتها حتى لا تتعرض لخطر آخر . وهناك تقابل الصحصاح مع الخليفة الذى شكر له مروءته وشهامته . ثم استعد الصحصاح للرحيل الى ليلى محملا بالهدايا من قبل الخليفة ، ولكنه لم يكد يفعل هذا حتى استوقفه الخليفة وطلب منه أن يصطحب مسلمة بن عبد الملك فى حربه ضد الروم ، ونفذ الصحصاح ما أمر به ، واستطاع بمصاحبة مسلمة أن يقضى على جيش الروم عند ديار بكر . وسعد الخليفة بهذه الأنباء التى شجعته على أن يأمر مسلمة والصحصاح باستئناف السير الى القسطنطينية والعمل على اسقاطها ، ولكن المدينة الحصينة لم تسقط ، بل صمدت فى اصرار . ولما طال زمن حصار المسلمين لها ، ابتنوا مدينة مواجهة لها

ليستقروا فيها وسموها « المستجدة » . ولما بلغ الضيق بالروم أشده نتيجة هذا الحصار ، استقر رأيهم على استخدام الحيلة ، فقد اقترح أحد أبطالهم ، وكان داهية ، أن يوضع فى صندوق مقفل تحمله قافلة تتزى بزى الأعراب ، وتسير به حتى تصل الى جيش المسلمين المحاصر للمدينة . وهناك تتدعى القافلة أنها عثرت على هذا الرجل المسكين تعذبه جموع الرهبان لأنه يعترف بدين محمد . فأسرعت فى اختطافه ووضعته فى هذا الصندوق المغلق حتى لا يكتشف أمره ، وتمت الحيلة على المسلمين . فلما ركنوا الى هذا الرجل الداهية ، استطاع أن يقتل بمعونة رجاله حشداً من جيش المسلمين ومع هذا فقد ظل الجيش الاسلامى مستقراً فى مدينة المستجدة حتى وقع الملك ليون مع الخليفة اتفاقية الهدنة بوقف القتال .

ثم توفى الصحصاح تاركا ولدين له . وقبل ولادتهما رأى فى منامه رؤية تنبئه أنه سيرزق بولدين ، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر . فلما ولد له الولدان سمى ابنه الأكبر وفقا للنبوءة ظالما ، والأصغر مظلوما . ثم تحققت النبوءة كاملة بعد موت الأب ، اذ وقع الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه . واستعان مظلوم بقبيلته لتحكم بينه وبين أخيه . فقررت

القبيلة ان تكون الزعامة قسما بين الولدين وبين أبنائهما من بعدهما ان كانوا ذكورا . ثم ولد لظالم ولد سماه الحارث ، أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة . أما ظالم فقد شعر بالزهو واخذ يستقصى خبر ولادة طفل أخيه . ثم وصلته الأنباء بأن أخاه ولد له ولد مات فى حينه ، فقد حرص مظلوم على اخفاء أمر ولادة ابنته فاطمة ، وبالغ فى هذا الاخفاء بأن سلمها الى مرضعة لكى تعنى بها . وسرعان ما كبرت فاطمة وأخذت تظهر عليها أمارات البطولة النادرة الى درجة أن أطلق عليها لقب « ذات الهمة » . ثم تتوالى الأحداث وتنكشف الحقيقة لذات الهمة وتعرف قصة حياتها فتمتلىء غيظا من عمها ظالم وتكن له الانتقام .

هنا تدخل ذات الهمة فى مرحلة جديدة من حياتها . فقد شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها ، اذ كان يحبها حقيقة . أما أبوه ظالم فقد رحب بهذا الزواج أيما ترحيب لعدة أسباب نسوقها على لسانه قال : « وقد عزمت على أن أزوجه بها لوجهين : الأول : لجمالها ، والثانى : أنها اذا صارت له انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها ...... وبانكسارها نحن نبلغ من أبيها سائر الأغراض » (١) .

---

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب جـ ٦ ص ٣٢ (ط. عبد الحميد حنفى) .

ولكن ذات الهمة وجدت ذلك فرصة سانحة لكى تنتقم من عمها ومن ابنه معا • فأعلنت رفضها الزواج من ابن عمها • كما أشاعت انها لن تتزوج من أى رجل آخر لأنها وهبت نفسها للدفاع عن الاسلام والأمة الاسلامية • ولم يأبه الحارث لاصرارها واستطاع بمعونة أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة ، ومع ذلك فقد عزمت ألا تدخل به • فاضطر الحارث ازاء هذا الاصرار أن يستخدم الحيلة ليدخل بها ، فقد استطاع عن طريق الحيلة أن يسقيها البنج ويفقدها وعيها ، وتمكن بذلك من الزواج بها • على أن ذلك لم يدفع ذات الهمة الى الاستسلام ،بل انها على العكس ازدادت كرها لابن عمها وعزمت على هجره على الرغم من انها كانت قد حملت منه • فانتظرت حتى ولدت ابنها عبد الوهاب وقررت أن تنزوح به الى منطقة الثغور حتى يشب فى ظل الجهاد • ولكن ابن عمها لم يتركها ترحل دون أن يسىء اليها ، فقد أشاع أن الولد الذى ولدته ذات الهمة لا ينتسب اليه ، واستند فى ذلك الى ان الطفل لونه أسود مخالفا فى ذلك لون أبيه ولون امه • عندئذ أرجأت ذات الهمة سرها حتى تدفع عن نفسها هذه التهمة ، وقد تكبدت فى سبيل ذلك أقسى المشقات ، اذ لعبت النوازع البشرية دورا كبيرا مما زاد من تعقيد الأمر ، فمن راغب فى الزواج منها ويرحب بطلاقها من الحارث ، ولذلك فهو يتحمس

لتبرئتها ، ومن دنىء النفس يسعد بالرشوة فيتحالف مع الحارث فى سبيل ادانتها • على أن ذات الهمة تركت شهادات البشر العاديين ولجأت الى اهل الكهانة والعرافة الذين أعلنوا براءتها • وعند ذلك تأهبت ذات الهمة للدخول فى طور كفاح جديد يؤهلها للوصول الى الشخصية الكاملة ، شخصية البطل المرموق الذى يود كل فرد من أفراد الشعب أن يصل اليه • وتبدأ ذات الهمة هذه المرحلة باستقرارها فى منطقة الثغور ، المنطقة التى يتجسد فيها الصراع بين العرب والبيزنطيين أو بعبارة أخرى بين الاسلام والمسيحية •

فى هذا الوقت انتقلت الخلافة من بنى امية الى بنى العباس • ولما تولى المنصور الحكم ، سعى اليه بنو سليم يكيدون لبنى كلاب • ووجدت كلامهم اذنا صاغية عند المنصور ، فارسل الى بنى كلاب كتابا يأمرهم فيه بالخضوع لسلطانه • وغضب بنو كلاب من الرسالة وقال احد شيوخهم للنجاب : « يا شيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى انه عزلنا عن الملك ، وانما كان أبونا محبا لبنى امية • وقد هلك الجميع وصاروا

فى القبور ، فارجع الى صاحبك وقـــل له عرب البـــر لا يدخلون تحت طاعتك ، ومن جاء الينا كانت سيوفنـــا اليه أقرب من كلامه ٠ » (٢) ولكن ذات الهمـــة بما لها من لباقة وكياسة استطاعت أن تسوى الخـــلاف حتى لا تغضب الحاكم ، الأمر الذى قد يعوقهـــا عن تحقيق هدفها ٠ فقالت لعمها : « يا عماه لقد بالغت فى الخطأ ، لما أن كان الأمر لبنى أمية كنت فى حقهم مليح ، ولما أن رجع الأمر لأهله عدلت عن الصحيح ٠ والصـــواب أن تنهض بقومك وتسير اليه (أى الى الخليفة) وتعذر فيما جرى منك ، وتعرض نفسك عليه وعلى خدمته لأن لك فى ذلك الشرف ٠ » (٣) ٠

وبهذا مهدت ذات الهمة لعلاقة طيبة بين قبيلتهـــا وخلفاء بنى العباس ٠ كما أنها تمكنت من توحيد صفوف جيشها بخاصة بعد أن قتل عمها ظالم وولده الحارث فى احدى المعارك العربية الرومية ٠ وعلى هـــذا الحـــال استقرت ذات الهمة متزعمة قبيلتها فى منطقة الثغور وفى ملطية على وجه التحديد واستعدت لأداء رسالتها الكبرى وهى القضاء على العدو الخارجى الذى طالما تهدد حدود الدولة الاسلامية وكان يطمح فى القضاء على الاســـلام قضاء مبرما ٠

---

(٢) السيرة ج ٦٠ ص ٥٤ ٠

(٣) السيرة ص ج ٥٥٦٠ ٠

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيرا على ذات الهمة وجيشها لو أن جيوش الأمة الاسلامية بأسرها : المتطوعة منهـــا والتابعة للدولة ، كانت متحدة متكاتفة ٠ ولكـــن الأمر لم يكن يخلو من نفاق ومن حـــرص على المصالح الشخصية ٠ أما النفاق فقـــد تجسد فى عقبة السليمى أحد أفراد قبيلة بنى سليم ٠ وتحكى السيرة أن أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته ، فلجأت الى الحكماء لكى يفسروا لها الرؤيا ، فقالوا لها : « يأتيك ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال ، ويكون سفاك الدماء ، كثير الحيل والزنا مفسدا فى الـــدين عاصـــيا لـــرب العالمين ٠ » (٤) ٠

وولد عقبة وأصبح ذات يوم قاضيا متفقها فى أمور الدين الاسلامى ٠ ولم تكن هذه الوظيفة المبجـــلة فى الحقيقة سوى الدرع التى يتخفى وراءهـــا عقبة ويحتمى بها ، فقد كان فى الداخل يتواطىء مع المغرضين الـــذين يرغبون فى الوصول الى الحكم ٠ وأما فى الخارج فكان جاسوسا يعمل لحســـاب الدولة البيزنطية ٠ ويمكننـــا أن نتصور مدى خطورة مثل هذا الرجل على الدولة الاسلامية لولا عين بنى كـــلاب الساهرة عـــلى مصلحة الأمـــة

---

(٤) السيرة ج ٧ ص ٨ ٠

العربية . فقد اخذت أسرة بنى كلاب على عاتقهم أن تحارب عقبة : أى تحارب النفاق فى الوقت الذى كانت تحارب فيه العدو الخارجى المتربص بالدولة . كما انها كانت تكشف عن اعماله التخريبية واطلع عليها الخلفاء أولا بأول . ومع ذلك فان الخلفاء كثيرا ما كانوا يتشككون فى ادعاءات قبيلة بنى كلاب ويرون انها كانت من قبيل الافتراء ، حيث أن القاضى كان يبدو تقيا ورعا من ناحية ، ولأنهم كانوا يودون الاحتفاظ بصداقة أسرة بنى سليم التى ينتمى اليها عقبة من ناحية أخرى .

على أن هذا لم يضعف من عزيمة بنى كلاب فى محاربة عقبة . وقد كان فى وسعهم أن يقتلوه ويريحوا الأمة من شره ، اذ انه كثيرا ما كان يقع فى أيديهم متلبسا بجرائمه ، ولكنهم لم يقدموا على فعل ذلك لأن عبد الوهاب رأى النبى فى رؤيا له واخبره أن عقبة سيتم قتله على يد أسرة بنى كلاب بعد أن يتم النصر للمسلمين ويفتحوا أبواب القسطنطينية ، حينئذ يصلب عقبة على باب الذهب أكبر أبواب مدينة القسطنطينية ، ويقف المسلمون المنتصرون ليشهدوا مصرع النفاق . « فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك ، أصبح وأعاد المنام على جميع الناس وأوصى كل من وقع به (أى بعقبة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبى (ص) لأنه

قال عليه السلام : من رآنى فقد رآنى حقا لأن الشيطان لا يتمثل بى » (٥) .

هذه النبوءة وغيرها كانت اكبر دافع للمسلمين على الكفاح فى صبر وعزيمة . فاذا كان الخلفاء قد اعتادوا على مناوءتهم طورا ومصالحتهم طورا آخر بسبب عقبة واسرته ، فان النبى الذى يطلع على الحقيقة كان مناصرهم على الدوام . واذا كان جيش بنى كلاب قد انشق على نفسه بعد رفض ذات الهمة الزواج من ابن عمها الى درجة أن انضم ظالم وابنه الحارث الى الطائفة المرتدة المناصرة لأعداء البلاد ، فان الله قد كفاهم شر ظالم وابنه بعد أن قتلا فى احدى المعارك . فاذا اضفنا الى ذلك انضمام البطل الجرىء المخلص محمد البطال الى جيش بنى كلاب ، يمكننا ان نقول ان الظروف اصبحت مهيأة للجيش العربى لخوض معركة النصر .

وقصة انضمام البطال الى صفوف المحاربين قصة غريبة بعض الشىء . فقد ولد كسولا وجبانا للغاية . كان « يفزع من الماء اذا صر ومن الثور اذا هر ، وكلما زقزق الفار فى الدار يهرب فى ثياب امه ... ومن جملة

(٥) السيرة ج ٣٦ ص ٤٠ .

كسله أنه اذا كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس الى الظل ٠ » (٦) وذات يوم بينما كان جالسا بمفرده تحت ظل شجرة ، هوى سيف من السماء مندفعا بقوة ٠ الى باطن الأرض ٠ وأصيب البطال بفزع شديد حتى كاد يغمى عليه ٠ فلما حاول أن يجتذب السيف ، وجده قد نفذ الى بطن ثعبان مهول وقضى عليه ٠ فما كان من البطال الا أن قال : « الله اكبر بان الحق وظهر ، وازال الله الخوف والحذر ٠٠٠ فلا مفر من الموت ، ولا مهرب من الفوت ٠٠٠ ثم انه فى ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التى أودعها فيه رب البرية وعصفت فى رأسه نخوة العرب ، ونزل من على تلك الرابية وجذب الحسام وحمل فى أوائل القوم ٠ » (٧) ولم يشأ محمد البطال أن يحارب فى صفوف قبيلته بنى سليم ٠ انما حارب فى صفوف بنى كلاب ، اذ رآهم اكثر استبسالا فى سبيل الدفاع عن الدين الاسلامى ٠

---

(٦) السيرة ج ٧ ص ٧١ ٠
(٧) السيرة ج ٨ ص ٢ ٠

على أن البطال لم يبرز فى القتال كما برزت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ، وانما كان متفننا فى أساليب الحيل ٠ وقد عبر هو عن ذلك فقال : « أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب ، وانما صناعتى فى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة ٠ » (٨) ٠

وقد ساعد البطال فى حيلة عاملان : معرفته بلغة الروم أى اللغة اليونانية ، ثم مقدرته على التنكر فى أشكال عدة ٠ ولم يستطع الروم رغم حرصهم البالغ منه أن يكشفوا أمره ، فاضطروا الى تعليق صورته فى الكنائس والأديرة حتى لا تتم خديعته على الناس ٠ وقد وصفه احد الروم بقوله : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتتت الأكباد الذى تذل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر الذى فى جميع الكنائس مصور ٠ » (٩)

وليس فى وسعنا أن نحدد حيل البطال ، وانما يكفى أن نقول انه يعد المحرك الأول لحوادث السيرة ٠ فقد

---

(٨) السيرة ج ٢٦ ص ٢١ ٠
(٩) السيرة ج ٢٨ ص ٥٤ ٠

كانت مهمته التسلل داخل بلاد الروم والمكوث بها زمنا يتيح له فرصة التعرف على بعض من يعرف خطط القتال فيهتدى بذلك الى معرفة نواياهم وينقلها بالتالى الى جيش المسلمين • وقد تكون مهمته تضليل الروم حتى تتم خطة جيش بنى كلاب بنجاح • فاذا تعذر فتح بلد على المسلمين ، يسرع البطال ويتفنن فى صنع حيلة حتى تسقط البلد فى أيديهم • وقد حدث هذا عند حصار عمورية ، فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها • عندئذ وقف البطال يتلمس الحيلة السريعة • فرأى من بعيد أناسا يركبون الحمير ويحملون معهم أشياء ويتوجهون الى أبواب المدينة • فلما وجدوها مغلقة تحدثوا فيها بينهم باللغة اليونانية عن كيفية حمل هذه الأشياء الى الملك • وفهم البطال حديثهم واقترب منهم وتحدث معهم باللغة اليونانية ، الأمر الذى جعلهم يتأكدون من أنه رومى • فلما ركنوا اليه هم بقتلهم ولبس زيهم وامتطى حميرهم مع بعض رجاله • ثم أفصح للحارس عن رغبته وكان قد بلغ بهذا الأمر فسمح له بالدخول مع رجاله • وما كاد يدخل حتى أخذ يعمل على هدم جزء من السور تمكن المسلمون من التسلل منه • أما أعظم مهام

البطال فهى تتبع تحركات عقبة • فاذا افتقده داخل البلاد الاسلامية ، أسرع فى الرحيل الى بلاد الروم ليبحث عنه • وما يزال مقتفيا أثره حتى يقبض عليه متلبسا بجريمته ثم يأخذه الى الخليفة ليشهد على خيانته •

وبهذا نستطيع أن نقول ان القوة اكتملت لجيش المسلمين • فالقيادة السليمة وقوة الشخصية تتمثلان فى شخصية ذات الهمة ، والبطولة النادرة تمثلت فى عبد الوهاب كما أن المقدرة على ابتداع الحيلة بلغت قمتها عند البطال • فاذا أضفنا الى ذلك استبسال جميع أفراد الجيش وتفانيهم فى أداء واجبهم ، أدركنا أن عوامل النجاح قد تهيأت لجيش الشعب العربى •

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية ، ابتعادهم عما يجرى داخل البلاد • ولم تكن أحوال الدولة الداخلية أقل اضطرابا من أحوالها الخارجية ، كما كان العدو الخارجى يتهدد البلاد عند حدودها ، كان الانتهازيون يتهددونها من الداخل • بل انهم كثيرا ما كانوا يتعاونون مع العدو الخارجى فى سبيل القضاء على السلطة العربية الحاكمة • وهنا يبدو

لنا أن العبء كان ثقيلا على الجيش الاسلامى المرابـــط عند حدود الدولة . فلكى تستقيم الأمور للدولـة الاسلامية لابد أن تتكاتف الأيدى للقضاء على عناصر الفســاد فى الداخل ، والقوة المهددة للبلاد فى الخـارج فى آن واحد . وهذا ما وضعه الجيش المحارب نصب عينيه ، فكانت خططه تسير وفقا لهذا المرمى .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً لو اتحدت الأمة الاسلامية حكومة وشعبا . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الدوام فى عهود الخلفاء . وهنا تقدم لنا السيرة عرضا تاريخا مفصلا منذ بداية عهد عبد الملك بن مروان ، حتى نهاية حكم المعتصم بالله ، فترسم لنا صورة واضحة لكل خليفة وموقفه من حوادث عصره معتمدة فى ذلـك على الحوادث التاريخية من ناحية ، وموقف الشعب ازاء ذلك من ناحية أخرى . ومن خلال هذا العرض يتبين لنا كيف أن بعض الخلفاء كان عاكفا على ملذاته ، غافلا عـن احوال الدولة ، منصفا للنفاق الذى يتجسد فى شخصية عقبة . ولكن هذا لم يكن ليترك اليأس يتسرب الى جيش بنى كلاب ، وانما كانوا يعتمدون فى مثل هذه الظروف

على قوتهم واستقلال رأيهم . فاذا عارضهم الخليفة اجابوه بقولهم : « ودعنـا فى وجـوه الكفـرة لا لك ولا علينا ، فيخـرج الأمر من يديك ويدينا » فاذا استشاط الخليفة غضبا وأمرهم بالرحيل من منطقة الثغور أسرعوا وتخفوا فى مكان قريب واستمروا فى نضالهم حتى تنكشف الحقيقة للخليفة فيعمل على اتصافهم .

ثم ينتهى العرض التاريخى للسيرة بخلافة المعتصم بالله . وهو ارشد الخلفاء العباسيين وأكثرهم نشاطـا ورجاحة عقل كما تصوره السيرة . وفى عهده اتحدت الدولة الاسلامية حكومة وشعبا فى سبيل المصلحـة العامة . ففتحت عمورية وهدد الجيش القسطنطينية وتم له النصر بفتحها . وكان عقبة قد أسر منذ زمن وظل فى حراسة مشددة حتى يتم صلبه على بـاب الـذهب . واجتمعت حشـود المسلمين لتشهد مصرع النفاق على باب الظلم والضلالة . عندئـذ توجـه المعتصم الى عقبة وقال له : « يا قاضى كيف تـرى قـول النبى (ص) للامير عبد الوهاب حينما وعده بصلبك ؟ هـل صح قوله فى الرؤيا أم لا ؟ وفى اللحظة التى تم فيها صلب عقبة هتف

المسلمون فى صوت واحد : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (١٠) .

وبهذا حققت السيرة كل ما يصبو اليه الشعب العربى ، فقد صلب النفاق وقضى على العدو الخارجى المهدد لكيان الدولة فى آن واحد . وحق للحكام الأبطال أبناء الشعب أن يسهموا بعد ذلك فى حكم البلاد .

ولما كانت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب والبطال قد أدركهم الموت بعد أن ادوا واجبهم ، فقد حكم أولادهم من بعدهم البلاد التى تم فتحها على أيديهم .

السيرة والتاريخ :

تعد السيرة حكاية شعبية بطولية . وتختلف الحكاية الشعبية عن الحكاية الخرافية فى دوافعها وشكلها . وليس هنا مجال للتفرقة بين النوعين وانما نكتفى بذكر أهم خصائص الحكاية الشعبية .

(١٠) السيرة ج ٧٠ ص ٧٦ ، ٧٧ .

الحكاية الشعبية البطولية ترتكز على الواقع تماما ، وهى فى الغالب تعتمد على الحوادث التاريخية . فقد يكون أبطالها تاريخيين ، وهى تلونهم وتشكلهم وفقا لخيال الشعب . وبالمثل فان الحوادث التى تحكيها السيرة ترتكز الى حد كبير على الحوادث التاريخية ، ولكنها تحكيها من وجهة نظر الشعب أولا وتدخلها فى نسيج حكايتها ثانيا . أى أن السيرة لا تحكى التاريخ العلمى الموضوعى وانما تحكى التاريخ الشعبى من خلال مقارنتنا لحادثة واحدة هى حادثة البرامكة . فالطبرى يبحث نكبة البرامكة بحثا موضوعيا ويقول ان الأسباب التى ادت الى نكبتهم مختلف فيها . ثم يأتى بالآراء التى قيلت بصدد هذا دون تعليق وتحمس لرأى من الآراء لأن التاريخ العلمى لا يقبل القطع برأى فيها .

أما ما تذكره السيرة بصدد هذه الحادثة فيختلف تماما عما يرد فى كتب التاريخ . لأن السيرة تحرص كما ذكرنا على أن تربط الحادثة بنسيج حوادثها ، وأن تعرضها من وجهة نظر الشعب . وأما عن ربط هذه الحادثة بتسلسل الحوادث فى السيرة فيتضح فيما يلى . تقول السيرة : « وأما ما كان من الامام الرشيد ، فانه لما سار ووصل الى ملطية ونزل عليها أمر بعمارتها . فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا فى البناء . وبعد ذلك سار الخليفة الى بغداد ودخل فيها وجلس على

كرسى خلافته • وكان عقبة حاضرا فى ذلك المجلس • ونظر الى جعفر بين يدى الرشيد ، وكل واحد يتكلم على قدر ما يشتهى ويريد ويؤمن ومن جملتها الوزير جعفر ابن يحيى البرمكى ، وقد تكلم فى حق الأمير (يعنى الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهمة) بما يليق باخلاقه الكريمة • فصعب ذلك على الملعون عقبة ولم يستطع ان يسمع المدح فى حق الأمراء • فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد الى داره ، وقد صح عنده تعصب جعفر للأمراء لأنه راه يشكر لهم الاحسان ويرد غيبتهم عند السلطان • فقال : وحق المسيح والحواريين لابد ان اعمل على هلاك البرامكة أجمعين • » (١١) ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطابا بخط جعفر البرمكى ، ويدسه له فى عمامته عن طريق اقرب خادم له • وفى هذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتهمه بأبشع التهم ، وقبل الخادم أن يفعل هذا فى مقابل مساعدة عقبة له على زواجه بمن يحبها • ثم ذهب عقبة الى الرشيد واخبره بأن جعفر البرمكى يحقد عليه ويعمل على ابعاده عن كرسى الخلافة •

(١١) السيرة ج ١٢ ص ٢٥ •

وليس على الرشيد سوى أن يطلع على الرسالة التى يخبئها جعفر فى عمامته حتى يتأكد من صدق قوله •• وفتش جعفر وعثر على الرسالة وأعقب ذلك انزال الرشيد النكبة بالبرامكة •

ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجوهر السيرة ، وانما أسهبت فى وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب • ومن خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم الى درجة أن صورت السيرة جعفر بوصفه وليا • فقد هتف هاتف بجعفر قبل أن تحل به الكارثة وأنباه بها • بل ان كرامات جعفر استمرت بعد وفاته • فقد اعتاد رجل أن يعيش على ما يغدقه عليه • فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غلبه النوم ، فرأى جعفر فى رؤياه وأمره أن يرحل الى البصرة ، فيذهب الى حانوت معين وصفه له ، ويقول لصاحب هذا الدكان « بامارة الفول اعطنى ثلاثة الاف دينار » (١٢) • وفوجىء الرجل عندما وجد صاحب الحانوت يقدم له ثلاثة

(١٢) السيرة ج ١٢ ص ٤٥ •

آلاف دينار على الفور . وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب . فأخبره صاحب الحانوت بانه رجلا فقيرا يبيع الفول . وفى ذات يوم خرج لبيع الفول فسقط المطر عليه وأغرق فوله . ورآه جعفر وعلم أنه فقير يسترزق من بيع هذا الفول . فغمره بعطفه وماله حتى اغتنى وفتح هذا الحانوت .

ولعلنا ندرك بعد ذلك الفرق الجوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد أولا على حوادث التاريخ وليس أدل على ذلك من أن السيرة اهتمت بذكر حادثة هجرة بنى كلاب الى منطقة الثغور ليشتركوا فى الحروب العربية البيزنطية ولولا اشارة القلقشندى لهذه الحادثة لحسبناها خيالا صرفا .

وليس فى وسعنا أن نذكر الحوادث التاريخية العديدة التى ارتكزت عليها السيرة . فالمكان لا يتسع لذلك . ولكن حسبنا أن نشير الى ما ذكره جريجوار فى مقدمة كتاب « العرب والروم » لفازلييف . قال ان الأستاذ كنار « اكتشف فى رواية الفارسية العربية المسماة بذات الهمة

مادة وفيرة لا تزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئا فشيئا فى ثنايا الأساطير وانتهت الى آثار مثل السيد البطال بعد أن كان المستشرقون يعتقدون أنها آثار لا تحد بمكان أو تاريخ . » (١٣)

وحسبنا أن يكون عبد الوهاب والسيد البطال شخصيتين تاريخيتين اشتركتا معا فى الحروب العربية البيزنطية . وقد قتل عبد الوهاب فى تلك الحروب عام ١١٣ هـ ، كما قتل فيها البطال عام ١٢٢ هـ . وقد كانا صديقين فى القتال تماما كما هو الحال فى السيرة . ففى عام ١١٣ هـ غزا عبد الوهاب مع البطال بلاد الروم . « فانهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرسا أجبن منك وسفك الله دمى ان لم أسفك دمك . ثم القى بيضته على راسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ؟ »(١٤).

السيرة بوصفها تراثا شعبيا وعملا أدبيا فنيا :

رأينا كيف أن السيرة تعد تراثا شعبيا . ومعنى هذا

(١٣) فازلييف : العرب والروم (ترجمة د. عبد الهادى شعيرة ، د. فؤاد حسنين (ص ٣) ط دار الفكر العربى) .

(١٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ، ص ١٥٥٩ .

أن الشعب يعيش حوادث عصره ، ويعبر عن موقفه من هذه الحوادث ٠ واذا عبر الشعب عن حوادث عصره ، فمعناه أنه ينتقدها ويثور على الفاسد منها ، وهو لا يكتفى بذلك ، وانما يصور من خلال نسج الحوادث بالحياة الكاملة التى يطمح اليها ٠ وهذا أول تعبير فى السيرة عن الروح الجمعى ٠ انه التعبير المتفائل الذى يهدم الحياة التى مسختها القيم الفاسدة ليقيم مكانها حياة يسودها العدل والصدق ٠ فقد رأينا أن السيرة فضلا عن ارتكازها على الشخصيات التاريخية البطولية مثل شخصية عبد الوهاب والسيد البطال ، خلقت شخصية أخرى تقابلها هى شخصية عقبة ٠ وعقبة رمز أكثر من كونه شخصا ، وهو رمز للحياة التى ينبغى أن تنتهى لأنها لا تحقق الخير ٠ ولهذا فقد صلب عقبه لأن وجوده لا يتفق مع الحياة الجديدة التى سعى اليها الشعب وحققها ٠ وقد أصر أبطال السيرة على أن يقتل عقبة على باب الذهب بعد أن تفتح القسطنطينية ، أى بعد أن يقضى على العدو الخارجى ، وهذا معناه فى مفهومنا الحديث أن كيان الدولة الداخلى والخارجى لا ينفصلان ، فموقف الدولة من أحدهما يعكس مباشرة موقفها من الآخر ٠ ولعلنا نلمس هذا بوضوح فى

عصرنا ، فالقوى الخارجية المناوئة اذا استطاعت أن تتسلل فى جسم دولة ، فانما يعنى ضعف الكيان الداخلى لهذه الدولة ٠ وبالمثل فان فساد الدولة الداخلى يمكن كل قوة متربصة بها فى الخارج من التسلل داخلها ٠ وهكذا يتبين لنا أن السيرة لم تكتف بسرد الحوادث ، وانما تطورت بها لتحقيق هدف بعيد ، وهو هدف شعبى وفنى حقا ٠

فاذا انتقلنا الى ذكر العناصر الفولكلورية التى تحتوى عليها السيرة فاننا نجدها وافرة ، وهى تتمثل فى المعتقدات والتطورات التى يؤمن بها الشعب ويعبر عنها فى كل أشكال تعبيره ٠ وأبرز هذه المعتقدات والتصورات تتمثل فى الحلم والسحر ٠ والحلم وفقا للتصور الشعبى لا يعكس حقيقة الحياة اليومية ، وانما هو حقيقة فى حد ذاته ، بمعنى أن ما يراه النائم فى رؤياه لابد أن يتحقق فى الواقع ٠ وقد سبق أن أشرنا الى الرؤيا التى رآها الرجل الذى كان ينعى حظه بعد نكبة البرامكة والتى تحققت بحذافيرها ٠ ولولا ايمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى الى تنفيذ ما أمر به فى حلمه ٠ وبالمثل تحققت الرؤيا التى رأى عبد الوهاب النبى فيها ، وكذلك الرؤيا التى رأتها أم عقبة قبل ولادته ٠

والحلم ، فضلا عن أنه يكشف عن الحقيقة المجهولة ، يؤدى وظيفة أخرى فى السرد · فهو يساعد على خلق الحركة الجديدة ؛ اذ سرعان ما يتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف لهم عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذى أسر فيه عزيز لديهم ·

والسحر قوة تكمن فى الأشياء · وفى وسع هذه القوة أن تساعد البطل فى تحقيق رغباته · وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها · فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحصاح معا ، وذلك بأن أرسلوا جاسوسا متنكرا فى هيئة زاهد ، استطاع عن طريق زهده أن يقترب منهما · فلما تم له ذلك وضع السم لهما فى الطعام ثم اختفى · فلما مد مسلمة يده الى الطعام ، « وأخذ لقمة وأراد أن يرسلها الى فمه ، اذا بالخاتم الذى فى يده يقطر ماء أصفر قطرات متداولة مثل المطر · فصاح على الملك (أى الصحصاح) وقال له اصبر يا ملك العرب لا تأكل شيئا من الطعام لأنه مسموم ···· وكان فى يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الحية وكانت احكمة الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم · وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين · ولما أرسل الأمير مسلمة الى هذا المكان خاف

عليه من هذه الأحكام ، فسلمه اليه وعرفه عن منفعته · » (١٥)

والسحر يكمن فى الكلمة كما يكمن فى الأشياء · فاذا هتف المحاربون بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، انهزم المحاربون الأعداء على التو واذا هتفوا بقوله تعالى « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ، اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا ، بل ان حجاف وهو أحد المحاربين الأبطال أصيب فى رجله ولم يعد يستطع الوقوف ، فادار أبو محمد البطال وجهه الى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية ·· ثم دنا من حجاف وقال له : قم بقدرة الله تعالى الذى رد عليك رجليك وخلصك مما كان قد تم عليك · فقام حجاف مثل الأسد الجسور وهلل فى قيامه وكبر وتشهد بعلو صوته · » (١٦)

وربما كان الاعتقاد فى قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة · فقد « كشف عبد العزيز الغلوى رأسه وأخرج يده من جلباب درعه وهو ينشد هذه الأبيات :

---

(١٥) السيرة جـ ٥ ، ص ١ ·

(١٦) السيرة جـ ٥٧ ص ٤٨ ·

ألا خــبروها أننى اليول باذل
لروحى فى هيجائهـا بالقواضب

وانى أراد الخيـل أيضا بصارمى
وأضرب أعناق الليوث السـلاهب

ولو كان فيما بيننـا ألف بلـدة
لها ألف سور هان عندى مطالبى

وحق الذى حج الحجيج لبيتـــه
ينـــادونه لبيـك من كل جـانب

لا قتحمن الحــــرب حتى ترونها
يفيض نجيعا مثل فيض السحائب

فاذا تجاوزنا المعتقدات والتصورات الشعبية الى ذكر نموذج من التعبير عن اللاشعور الجمعى ، فاننـا نجده يتمثل فى صورة البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحـلة النضج والكمال · وقد سبق أن قدمنـا نموذجين لحيـاة البطل يتمثلان فى حياة جندبة وحياة ذات الهمة فقد ولد جندبة يتيم الأب ، ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء ، فلما كبر عرف حقيقة نسبه ، فانضم الى قومه وأصبح البطل المرموق · وبالمثل فقد تربت ذات الهمة لدى قوم غرباء أى أنها أبعدت عن أبيها وأمها · ثم عرفت فى النهاية حقيقة نسبها فانضمت الى أهلها وقد اكتملت شخصيتها وأصبحت بطلة السـيرة الأولى · ولا تنفـرد السيرة بهذين النموذجين ، ولكنها تحتوى على نمـاذج

بطولية أخرى تكاد تتفق حياتهما مع هذين النموذجين · فاذا عرفنا أن صورة البطل هذه ترد بالمثل فى الحكايات الخرافية والحكايات الشعبية فى جميع أنحاء العـالم · استطعنا أن ننتهى الى أنها تعبير تلقـائى عن اللاشعـور الجمعى كما فسره علماء النفس · ومصدر هذا التعبير هو احساس الفرد بالعقبات التى تستكن فى لاشعوره منذ طفولته حتى يصل الى مرحلة التفرد والاكتمال · فالطفل الذى يولد من أبوين ، وما يلبث أن يشعر ــ حينما يكبر ــ بسيطرة الأب عليه الأمر الذى يدفعه الى التقرب لأمه · حتى اذا ما شب عن الطوق ، اضطر ــ مدفوعا بطبيعة الحياة التى تتميز بالاكتمـال والكمال ، الى الانفصـال عن أمه · وفى هذه السن يشعر الابن باحتقار لأبيـــه وأمه ويحل فى خياله محلهما من هما أرفع منزلة · حتى اذا اكتمل الابن نضجه ووصل الى مرحلة الرجولة الكاملة ، ارتد الى عالم الواقع ، فيتعـرف على أهـله محتفظـا ببطولته ورجولته · هذا الاحساس الشعورى يخلفه الشعب مرة أخرى على صورة البطل · فالبطل اما أن يولد يتيم الاب ، أو يستنكر الأب ولادته اثر نبوءة تطلعه على خطورة طفله · وفى هذا اشارة لعلاقة الابن بالأب فى حيـاته

الأولى . أما الأم فتحتفظ بالطفل بعض الوقت بعـد ذلك ، الى أن يبعد عنها الطفل كذلك ، وفى هذا اشارة الى تحركه الطبيعي نحو الاستقلال . حتى اذا كبر الطفل تعرف على أهله . أى أنه ـ بعد أن تتم عملية الاستقلال والنضج ، لا يشعر بخطورة فى الانضمام مرة أخـرى الى أهله ، لأنه قد أصبح بالفعل بطلا مرموقا .

وبالاضافة الى المعتقدات والتصـورات الشـعبية ، وصورة التعبير التى تنبع من اللاشـعور ، هنـاك الحكايات الشعبية التى يحفظها الشعب فى ذاكرته لاعتزازه بهـا . ومن ثم فهو يخلق لها مجالا فى السيرة لكى يحكيها عن عمد . ومن ذلك ما يحكيه الراوى عن الصحصاح من أنه تقابل فى قلب الصحراء مع ظبية راعه منظرها وهى تجرى مصطحبة أولادها . فجرى وراءها الصحصاح يبغى صيدها ، ولكنها أسرعت ودخلت كهفها مع صغارها . وفى تلك اللحظة برز أسد جسور وهم بأن يفتك بالصحصاح . وفى تلك اللحظة تجسدت أمامه امرأة رائعة الجمال لم يدر من أين أتت . فضربت الأسد ضربة قضت عليه . وتعجب الصحصاح من ذلك وسألها ما اذا كانت انسية أم جنية . فأخبرته ـ بعد أن سخرت منه ومن قوته التى يعتز بها ، بأنها ابنة ملك الجـان عقهق الذى سجد للنبى

عليه السلام . وهى بعينها الظبية التى جرى وراءها ، ورغب فى اصطيادها .

ومن ذلك حكايات الكهانة والعرافة . وقد رأينـا كيف أنها استغلت فى حادثة تبرئة ذات الهمة من التهمة التى وجهها لها ابن عمها الحارث .

كل هذه العناصر الفولكلورية تحتوى عليها السيرة . وهى تتعلق جلها بتراث الشعب القديم . فهل معنى هذا أن أهمية السيرة ترجع الى احتوائها على هذا التراث ؟ وبعبـارة أخـرى : هل يعنى التراث الشـعبى ، القـديم المتوارث ، أم القديم المتطور ؟ ان التراث الشعبى يعنى أولا وأخيرا شتى أشـكال التعبير عن حياة شعب من الشعوب . وتتحدد حياة هذا الشعب بأصله والمكان الذى يعيش فيه ومصيره . ومعنى هذا أن أى تغيير يطرأ على حياة هذا الشعب لابد أن يترك أثره فى الشعب وبالتـالى فى أشكال تعبيره .

أما بالنسبة للسيرة فقد تغيرت حياة الشعب العربى الممثل فى أسرة بنى كلاب تغيرا زمنيا ومكانيـا واجتماعيا . وقد استطاعت السيرة أن تصور مرحلة الانتقـال هـذه أروع تصوير . فقـد بدأت بعـرض حوادثهـا فى قلب

الصحراء ، حيث كانت تعيش أسرة بنى كلاب . وقد كانت تعيش هذه الأسرة فى أفق مكانى ضيق وحيز زمانى محدود . أما المكان فهو الصحراء بتقاليدها المتوارثة . وأما الزمان فهو عصر ما قبل الاسلام وان أتى عليهم الاسلام . ولهذا فان حياة هذه الأسرة لم تتجاوز الصراع بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة . ثم خرج الصحصاح يطلب مهرا لليلى من وراء المغامرات . وقادته هذه المغامرات الى بلاط الخليفة الذى وثق فى شجاعته وطلب منه أن يرحل مع مسلمة بن عبد الملك لمحاربة الروم .

وتعد هذه الحادثة نقطة تحول فى حياة الأسرة ، اذ اعقبها خروج الأسرة كلها الى منطقة الثغور . وهذا معناه اتساع أفقهم المكانى وكذلك أفقهم الزمانى نتيجة معايشتهم لحوادث عصرهم التى كانوا بعيدين عنها . وبالمثل فقد فتحت الحياة الجديدة أذهانهم لمفهومات سياسية واجتماعية جديدة . فالحاكم ليس الشخص الذى يتربع على عرش الملك ويعيش حياة البذخ والترف بينما تدير حكومته أمور البلاد كيفما شاءت ، وانما هو ذلك الذى يعيش مع الشعب ويشعر الشعب بوجوده . فلما ظهر الخليفة هارون الرشيد أمام جيش الشعب مصطنعا موقف الحاكم المترف الذى يأنف من شعب الصحراء وبخاصة عبد الوهاب الأسمر اللون ، اغتاظ أحد أفراد أسرة بنى كلاب ،

وخاطبه بالصراحة التى تربى عليها ، وسأله عن السبب الذى دفعه لاحتقار أميرهم وبطلهم عبد الوهاب ، ألأنه أسود اللون ؟ واذا كان الأمر كذلك فليبق هو خليفة للبيض ، وليصبح عبد الوهاب خليفتهم .

ثم أن الحاكم يتحتم عليه أن يترك فرصة للشعب ليسهم فى صنع حاضره ومستقبله . وقد أسهم شعب السيرة فى صنع حاضره ومستقبله ، فوضع يده على بؤرة النفاق وقضى عليه وعلى العدو الخارجى فى آن واحد .

ان سيرة الأميرة ذات الهمة تراث أدبى عربى يستحق كل تقدير . فقد جمعت فى ثناياها التراث القديم والتاريخ ومقومات الدولة السياسية والاجتماعية المثالية ، ثم مزجت كل هذا فى قالب قصصى متكامل ، يحقق هدفا محددا على الرغم من طولها البالغ .



صفات البطل :

« قال الراوى » فلما رأى الصحصاح مصارع الأشباح ، وهذه الحريم فى بكاء ونواح ، أخذته الحمية ، فصاح فى عبده نجاح وقال والله هؤلاء حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر محمد عليه أفضل الصلاة

والسلام ، وهؤلاء اللئام قطعوا عليهم الطريق وعوقوهم تعويقا وأظنهم قتلوا كماتهم وأبادوا حماتهم • ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف واغاثة الملهوف ولابد أن ألقى روحى على هذه الكتيبة واكشف ان شاء الله هذه المصيبة • فقال له عبده نجاح يا مولاى لا تفعل، واعلم أن ما قصد لأخذ هذه الأموال وحماها الا رجال وأبطال وصناديد أفيال ، ولابد أنهم تسعون فارسا ما بين مدرع ولابس • ولا يخفى أن يكون واحد منهم مثلك ، والباقى لا يصبروا على فعلك • وقد كان فى هذه القافلة ما ينوف عن ستمائة فرس أو دون ذلك فتركوهم هؤلاء ما بين ماسور وهالك ومطروح تحت السنابك • والصواب يا مولاى لا تعرض نفسك على هذه المهالك ولا تعارك ، فلما سمع الصحصاح من عبده ذلك الكلام نظر اليه وقال يا ابن اللئام ما يقعد عن نصرة الحريم الا كل لئيم • ثم صاح من أم رأسه : يا أندال البادية والطائفة الباغية العادية ، أقسم بمن جعل البيت الحرام حمى للناس وأمنا من الباس ، وأوضح منهجه وافرض حجة لئن لم تخلوا عن الحريم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا علاصم وأجسامكم بلا جماجم وجراحكم ما ينفعها مراهم وقد نصحتكم نصح الليث الحازم • ثم أنشد يقول :

الا يا رجال السوء كفوا عن الطعن
وكفوا عن الأموال والحمل والظعن

أحجام بيت الله تبغون مغنما
وذلك فعل الشين يقضى الى المحن
دعوهم والا والمظلل من منى
وحجاج بيت الله فى سائر المدن
جعلتكم فى القاع طعما لأسده
كذا الطير من نسر وبوم مع السن

التراث الأسطورى فى السيرة :

« قال الراوى » : وكان الصحصاح قد كل من السيرة وقد فرح قلبه بنظره الى ذلك الدير ، وقال فى نفسه لعلى أجد عند بعض الرهبان فرجا مما أنا فيه ويفرج عن قلبى ما أعانيه • (وقال الراوى) يا سادة يا كرام ، فبينما هو يحدث نفسه بالمسير الى الدير ، واذا هو بغزالة حسنة ، مليحة الزى وهى سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان ، وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفها كأنهم غلمان وهى أمامهم كأنها ملك وسلطان • وعن يمينها وشمالها غزالتان كالأتراك كأنهما لها حجاب وهى تتحدث معهم • وكان الوقت عند غروب الشمس وقد اصفرت أرجا • فمد الصحصاح اليها أسنانه وأطلق نحوها عنانه فجرت الغزالة قدامه وقد لحقتها تلك الغزلان وهى تجد والصحصاح لها فى الطلب ••••••• هذا وقد دخلت الغزالة الى غار فى الجبل وتبعتها الغزلان وقد بقى الصحصاح حائرا ولهان

وعليها ندمان . فأراد ان يدخل خلفهـا الى ذلك المكان فخاف على الجـواد يشرد منه فى ظلمة الليل ويبقى حاله بعده فى الويل . فرجع طالب الدير واذا قـد اعترضـه أسد كأنه شيطان . وكان الأسـد طويل القـامة عريض الهامة أحمر أغبر ، قد جلله الوبر وهـو يتمخطـر عـلى الحجـر .. وهجـم على الصـحصاح فهجـم عليـه الصحصاح . وعندها صرخ الأسـد على الصحصاح صرخة قوية قلب منها البرية وقـد هجم عليـه ولطمـه بيديه فأرماه تحته . فبينما هـو والأسد فى ضراب وقراع ودفـاع ، وقد صـارت روح الصحصاح فى النـزاع ، واذا بجارية حسنة القـوام مليحـة الابتسام كأنها البدر التمام قد اقبلت وصرخت على الأسـد فارتجـع عن الصحصاح وخـلاه . وراح فنظـر الصحصاح الى وجه تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين . فقدم اليها وقبل يديها وقال لهـا : أنت انسـية ام جنية فقالت له : ايش لك بى وايش لك بهذه القضية ؟ لا انسية ولا جنية أنا فاعلة خيـر سـاكنة بجـوار أهـل هـذا الدير .. وأنا بنت عتهق الجنى ملك الجـان . وان بنت الجن ما يتغير حسنها ولا ينقص جمـالها ، فالمليحة مليحة والقبيحة قبيحـة ، وفينـا من تتـزيا بمهمـا أرادت من الصفة الوحشية وصفة الطير وغيره وفينـا للشر وفينـا للخيـر ولما آمن ابى نزلت على النبى صـلى الله عليـه

وسلم سورة قل أوحى .. الى قوله انه : استمع الى نفر من الجـن ... »

النزاع بين افراد القبيلة الواحدة :

« قال الراوى » فلما أن كان بعد ذلك بايام جلسـوا بين المشايخ الكرام . فقال ظالم لمظلوم اعـلم أن زوجتـك وزوجتى حامل ، وأنت أمير وأنا أمير ، فاجعل الشـرط بيننا ويشـهدوا هـؤلاء المشـايخ علينـا ، من جابت زجته ولدا ذكرا كان الملك له والامارة من دون الآخـر ويكون الأمر والنهى فى الحـرب له .. فقالوا مشـايخ بنى الوحيد : وترضى انت بهـذا الأمـر . فقال اى والله العظيم وان جاءنا ذكران بقيت الامارة على حالها مشتركة بين الاثنين . فشهد العـرب بعد أن رضوا بذلك الحـد ، لأنهم تربية البر وهزلهم جـد ... (قال الراوى) وبعـد حين أخذ المراتين الطلق باذن خالق الخـلق ، فوضـعت زوجة ظالم ذكـرا كأنه فلقة قمر ، ففـرح به واستبشر وقد سماه الحارث . وقال للداية اذهبى وكونى فى بيت أخى فانى اخاف أن يكتمـوا ما يرزقون عند الولادة من خوف الشـهادة . فقالت له : دع عنك المنافقـة والشين ، كيف يكون هذا وانتمـا أخوان . فقال لهـا دعى عنـك هذا الكلام واذهبى الى بيت أخى بسـلام .. فعندهـا ذهبت الداية الى بيت مظـلوم وكانت تحبـه اكثـر من

ظالم لما فيه من الدين والخير وجودة التمكين • فلما أن دخلت قالت لمظلوم : اعلم أن أخاك قد بعثنى لأجل كذا وكذا • ثم انها جلست ساعة وزوجة مظلوم تطلق ، فولدت جارية كأنها البدر قوية السواعد والأطراف هائلة الأكتاف • فوقعت على أمها الخمدة والهموم والغموم ، وقد فزعت من زوجها ظلوم ••• »

التاريخ الشعبى :

« ••• ولم يكن هناك يومئذ بلد ولا عمارة سوى دير فيه راهب فطلبه المنصور الى بين يديه ، فلما أن حضر سأله عن اسمه فقال له « باغ » وهذه الأرض اسمها « راد » وقد قرأت فى كتب الحكماء واطلعت على الملاحم فرأيت فيها أنه لابد أن تعمر هنا مدينة مذكورة الى آخر الزمان • « قال الراوى » فقال له الخليفة : كيف تبنى المدينة ههنا وهذه الأرض ملآنة ماء • فقال له الراهب : لا تعرف قطع الماء الا منى • فقال له : افعل ما تريد • فمضى الى مكان يعرفه وسد الماء فانقطع • ونزل المنصور على الدجلة ثم أمر بعمارة المدينة •• وسماها باسم الراهب والأرض » •

الايمان بالمعجزات :

« وقال الراوى » ونرجع لما كنا عليه من الكلام باذن محيى العظام • ولما تقدم أبو محمد البطال الى السهم الذى يتحرك فى التراب فجذبه بكلتا يديه فلم يقدر • فجذب السيف الذى معه وحفر حواليه الى أن وصل الى آخره ، واذا بذلك السهم قد وقع فى ثعبان عظيم ارتمى وهو مبلط بالدم • وذلك الثعبان من حلاوة الروح قد انقلب ودمه قد انسكب • ولما رأى البطال ذلك تحير فى أمره وقال : الله اكبر بان الحق وظهر ، وزال والله الخوف والحذر ••

الايمان بحقيقة الحلم :

••• وبالقضاء والقدر نزل الأمير تحت شجرة كبيرة ظليلة لها أغصان متفرعات عن بعضها البعض وكل غصن منها يظل الفارس والمائة • فنام الأمير عبد الوهاب تحتها وقد غرق فى نومه فسمع للشجرة أنينا كأنين الثكلى وهى تقول : أيها الأمير صدق الله ورسوله • فاذا قمت من نومك قل لأصحابك يقطعونى وبهذا حكم الله تعالى فلا مرد لحكمه ولا دافع لقضائه • ثم انك تقطع أغصانى واحملنى من مكانى • فعلى يكون صلب عقبة الملعون على باب الذهب بعد أن يقتل ثلاثمائة الف على صلبه من سائر الأمم • فانتبه الأمير عبد الوهاب

من نومه وهو فزعان مرعـوب وسـمع أنين الشـجرة فى يقظته كما سمعها فى نومه • فلمـا سـمع ذلك قال : الله أكبر •• الله أكبر • فقال الأمير أبو محمد البطال : ما الخبر فأعاد عليه القصة ففرح الأمير أبو محمـد البطال بذلك والأميرة ذات الهمة وقالوا : والله هـذا أحب الينـا من فتح القسطنطينية لأن ما يجرى على المسلمين شىء أشد مما يجرى عليهم من حقبه •



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٩٢

ISBN — 977 — 01 — 4399 — 5

